القسم الثاني

« تنبيهات »

وتشتمل على مسألتين :

١ـ الخروج من الإيمان .

٢ـ زيادة الإيمان ونقصانه .

أولاً: الخروج من الإيمان

ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه[1] .

---

(١) هذه قاعدة جليلة ، أمّا ما يوضحها ويظهر صور الجحود ـ والعياذ بالله منها ـ فهذه أمثلتها .

صور الجحود :

١ـ الاعتقادية :

ما يدخل في باب الإلهيات :

مثاله : إنكار الخالق ، أو إنكار صفة من صفات الكمال ، أو وصفه بما هو منزه عنه .

ما يدخل في باب النبوءات :

مثاله : إنكار الأنبياء الذين ورد الخبر القاطع بالإعلام بهم ، أو إنكار أحدهم ، أو إنكار عموم رسالة محمد ﷺ ، وأنه خاتم الأنبياء .

ما يدخل في باب السمعيات « الغيبيات » :

مثاله : إنكار البعث والقيامة بالروح والجسد ، أو اعتقاد أنّ النعيم والعذاب روحاني لا صلة للجسم بذلك ، أو إنكار الملائكة .

٢ـ القولية :

بأن يقول ما لا يجوز مما يستحيل على الله سبحانه : كالوصف بالجهل وغير ذلك ، وكذلك الاعتراض على عدله وقضائه وقدره واتهامه بالجور .

٣ـ الفعلية :

كالسجود للأصنام .

الإسلام وقضية التكفير

اشتط ناسٌ في موضوع التكفير حتى تجاوزوا الحدود العلمية والفقهية في =

= هذا الشأن ، فاقتضى ذلك تنبيهاً ؛ لأن المسارعة في التكفير ليست من خلق أهل السنة والجماعة ، فأهل السنة والجماعة لا يكفرون إلا بما يوجب التكفير قطعاً ، فالهجوم على التكفير خطر إلا فيما كان واضحاً وضوح الشمس لا يحتمل تأويلاً ، أو ما حكم فيه أهل الفتوى أنه ردة .

قال أهل العلم : لا نكفر مسلماً أقرَّ بالشهادتين وعمل بمقتضاها برأي أو معصية ، إلا إذا أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب العربية بحال ، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر .

ولما كان الإيمان هو التصديق بجميع ما جاء به النَّبي ﷺ ، ووصل إلينا عنه بطريق يقيني كان الكفر نقيضه .

قال الرازي في تفسيره : الكفر عدم تصديق الرسول ﷺ بشيء مما علم بالضرورة مجيئه .

واعرف ـ بوركت ـ : أن المسلم ينطلق في رحلته على هذه المعمورة محباً للبشرية جمعاء ، يهدي خلق الله حسن السلوك ، وحسن الخدمة ، وحسن المحبة والأشواق ، فبضاعته الحب في الله ، وشعاره الإخاء في الله ، وغايته مرضاة الله ، فإن رأى مقصراً في جنب الله لم يسارع إلى تفسيقه أو تبديعه أو تكفيره ؛ لأنه يمتلك نظرية متكاملة شعارها : نحن دعاة لا قضاة .

يعلق فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي على هذا الشعار فيقول ـ حفظه الله ـ :

« وفرق كبير بين القاضي والداعي :

القاضي : يجب أن يبحث عن حقيقة الناس حتى يحكم لهم أو عليهم ، ولابد له من أن يصفهم ويعرف مواقفهم ليقضي لهم بالبراءة أو العقوبة ، ثم إن موقف القضاء يجعلنا ننظر إلى الناس على أنهم متهمون ، والأصل أنهم برآء .

أما الداعي فهو : يدعو الجميع ، ويبلغ الجميع ، إنه يصدع بكلمة الإسلام يدعو إليها كل الناس من كان ضالاً فليهتد ، ومن كان عاصياً فليتب ، ومن كان كافراً فليسلم ، والداعي لا يعمل على عقوبة المخطىء ، بل يعمل على هدايته ، ولا يتعقب المرتد ليقتله ، بل يتبعه ليرده إلى حظيرة الإسلام » .

ا . هـ ، ظاهرة الغلو في التكفير ، ص ٩ .

ثانياً : زيادة الإيمان ونقصانه

« والإيمان واحد وأهله في أصله سواء ، والتفاضل بينهم بالتقوى ومخالفة الهوى ، والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن ، وأكرمهم أطوعهم وأتبعهم للقرآن »[1] .

---

(١) هذا رأي أبي حنيفة ومن تبعه ـ رحمهم الله ـ وهو يعني أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وإليك تفصيل هذا الرأي :

يقول الشيخ إسماعيل الشيباني رحمه الله :

قال أبو حنيفة وأصحابه رحمة الله عليهم أجمعين :

الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب ، وأراد بالتصديق أن يعرف الله كما هو أهله ، ويعرف رسوله وجميع ما يجب معرفته في تصحيح الإيمان ، فيعتقد ذلك بقلبه تصديقاً ، ويجري على لسانه تحقيقاً .

وقال الشافعي ومالك وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه وأبو العباس القلانسي وغيرهم رحمة الله عليهم : إنه إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالأركان .

والحجة لأبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [التوبة : ١٨] .

فالله تعالى ميز بين الأعمال والإيمان .

ولأن رسول الله ﷺ كان يدعو إلى الإيمان ويقول : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله » البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢١) ، (٢٢) .

وقال عليه السلام : « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » رواه الإمام أحمد في مسنده . =

. . . . . .

= علّق الفلاح بالقول لا بالعمل ، وأجمع المسلمون أن من صدّق بقلبه وأقرّ بلسانه ، ولم يعمل عملاً ، أنه كامل الإيمان ، ولهذا قال ﷺ لما قتل أسامةُ المشركَ بعد قوله لا إله إلا الله : « قتله وهو مسلم » ، قال : يارسول الله ، قالها متعوذاً من القتل ، فقال ﷺ : « هلاّ شققت عن قلبه » رواه مسلم (٩٦) .

أفاد هذا الحديث فائدتين :

إحداهما : الرد على من قال : إن الإيمان إقرار باللسان لا غير بقوله ﷺ : « هلاّ شققت عن قلبه » .

والفائدة الأخرى : الرد على من قال : إن العمل من الإيمان ، لأن النّبي ﷺ حكم بالإيمان بمجرد هذا القول ، وكذا قوله تعالى : ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة : ٤١] .

أيضاً انتظمت الآية الرد على الطائفتين وجهة الدلالة من الآية :

أن الله سبحانه وتعالى جعل الإيمان محله اللسان والقلب ، ولم يذكر الأعمال ، ولو كانت الأعمال من الإيمان لنفاه عن أعمالهم كما نفاه عن قلوبهم ، وكذا لم يجعلهم مؤمنين بمجرد القول بأفواههم لمّا لم يؤمنوا بقلوبهم ، والمعقول لا يشهد لذلك ، فإن الإيمان عن التصديق ، والكفر ضده ، وهو التكذيب ، والتصديق والتكذيب يقومان بالقلب واللسان ، ولا مدخل للأعمال في ذلك ؛ لأن التصديق مما لا يقبل التزايد في نفسه ولا يقبل النقصان ، شرح الطحاوية ، ص ٦٤ .

قلت :

لقد عرفت أدلة من قال بأن الإيمان واحد ، ولا زيادة فيه ولا نقصان ، وأن من قال بزيادة الإيمان ونقصه له أدلته أيضاً ، والمهم أن تعرف أن أهل السنة والجماعة اتفقوا على أهمية الأعمال وكونها ترجماناً معبراً لجملة أركان الإيمان ، ولا يجوز بحالٍ التساهل فيها فحتى الذين لم يعتبروا الأعمال جزءاً من الإيمان قالوا : « لا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله » إشارة إلى قيمة العمل .